

يا شعبنا المكافح الصبور « (٢٤)

في قصيدة « حمزه » تقدم فدوى نموذجا حيا . لانه أولا لا يخلو من خصوصية الانسان الطيب الذي يأكل خبزه من كدحه ، كجميع البسطاء الطيبين ، ولانه ايضا لا يخلو من عمومية الشمول الذي يجمع الكل في واحد ليكون رمزا موحيا ، لا للانسان الفلسطيني الثائر ، ولخصب ثورته ، فحسب ، بل للارض الفلسطينية ولخصبها . وفدوى طوقان تقدم هذا النموذج بحاسة فنية ماهرة ، لا تسبب فيها ولا مفضضة ولا رومانسية .

« كان حمزه

واحدا من بلدي كالآخرين

طيبا يأكل خبزه

بيد الكدح ككومي البسطاء الطيبين »

هذه البداية تبدو قصصية ، والقصيدة قصصية بالفعل ، ولكنها ذات منطق شعري غير سردي . منطق متداخل يجمع بين الاضداد ، ويوجد العناصر ليخلق طاقة الخصب . فحمزة في البداية انسان بسيط ، وهي اشارة لاثارة الانتباه ، يلاقي الشاعرة ذات يوم وهي تتخبط في تيه الهزيمة ليقول لها : « اصمدي يا ابنة عمي » لان هذه الارض التي تحصدنا نار الجريمة ، والتي تبدو اليوم حزينه وساكته تملك قلبا لا يموت :

« هذه الارض امرأة

وفي الاخايد وفي الارحام سر الخصب واحد

قوة السر التي تنبت نخلا ومنابل

تنبت الشعب المقاتل »

لم تعد « قوة السر » تعني لدى فدوى ما كانت تعنيه في عوالمها السابقة ، فهي بعد ان كانت « جبرية » داخل الذات المظلمة ، « وقدرنا » ماورائيا ، اصبحت اليوم جدلا يوحد بين الانسان والطبيعة ، بين الذات والعالم ، وقوة دافقة لا تتحرك الا من اجل ميلاد جديد .

فحمزه ، الذي يغيب ويظهر ، انما يعطي احياء بالولادات التي لا تنتهي وبالثورة التي لا تتوقف . فبعد ان تدور الايام دون ان تلنقي الشاعرة به ، كانت تعرف ان الارض تعد بمخاض وبميلاد جديد .

وبعد ان يحاول حاكم البلدة وجنوده نسف الدار التي يسكنها حمزه واولاده ، يطل من الشرفات لينادي :

« يا فلسطين اطمئني

انا والدار واولادي قرابين خلاصك

نحن من اجلك نعيا ونموت »

وبعد ان يتلاشى كل شيء ، تعود الدورة لتبشر الشاعرة من جديد :

« امس ابصرت ابن عمي في الطريق

يدفع الفطو على الدرب بعزم ويقين !

لم يزل حمزة مرنوع الجبين »

وهكذا ، بعد تجربة طويلة من الطواف ، تتعرف الشاعرة فدوى طوقان على الطوفان ، وبعد تحديق طويل في الموت تتعرف على « الميلاد » لتفني الارض الجديدة ، والمستقبل الجديد ، والانسان الجديد .